٤ . في السودان والبحرين والكويت

وقضيت في بور سودان اربعة ايام اتاحت لي فرصة نادرة لاستعراض مشاهداتي في الاسكندرية والقاهرة وقطاع غزة وتلخيصها .

والواقع اني لاحظت أثناء زيارتي القصيرة لمصر ان معظم اليهود المصريين لم يكونوا صهيونيين وأنهم يعطفون على الحركة الصهيونية عطفاً ضئيلاً او لا يعطفون عليها البتة . صحيح انهم يستشعرون شيئاً من المشاركة الوجدانية نحو إخوانهم الراغبين في الفرار من اوروبة ، ولكنهم عاشوا مدة بين العرب جعلتهم يفهمون النقمة التي تعصف في نفوسهم بسبب من إخراج اهل فلسطين من ديار آبائهم واجدادهم تحقيقاً لنزوات بعض الساسة البريطانيين والأميركيين . والحق ان كبير حاخامي مصر ، حاييم نحوم افندي ، كان خصماً جريئاً للصهيونية ، يحاربها علانية . وكذلك كان كثير من اليهود المصريين الذين كشفوا لي عن اعتقادهم بأن الحركة الصهيونية سوف تنتهي بكارثة تصيب اليهود حيثما وجدوا .

وفي غزة شاهدتُ صوراً فوتوغرافية لبعض الفظائع البربرية التي

أنزلها الصهيونيون بالعرب رجالاً ونساءً واطفالاً . وكان احد الضباط البريطانيين السابقين يصف لي في حماسة بالغة بعض تلك المشاهد. ولقد سألته ما اذا كان العرب قد ارتكبوا فظائع مماثلة ، فقد بدا لي ان الوحشية تولّد الوحشية وان العرب الذين أخرجوا من ديارهم لن يعدموا فرصة للانتقام . فأقرّني الضابط على ذلك قائلاً إن العرب لم يسكتوا على عدوان اليهود . فقد كمنوا للجند الاسرائيلي ولأفراد عصابة شترن وقطعوهم ارباً اربا بعد ذلك. ثم أضاف : « ولكن العرب أطفال في هذه الشؤون . فهم لا يقتلون في أناةٍ وروية كمن يجد متعة في مجرد القتل ولن تقع عندهم على الوحشية المدروسة المقدّرة التي تجدها عند أولئك الصهيونيين . إن ثمة شيئاً غير إنساني في جماعة شترن والأرغون هؤلاء . »

وكنت طلبت الى المسؤولين المصريين ان يعطوني بعض الصور التي تمثل اعمال اليهود الوحشية ، فرفضوا برغم ما أوضحته من ان نشر هذه الصور يفيد قضية العرب كثيراً . لقد أشاروا الى جثث الرجال والنساء والاطفال الممزقة وقالوا : « كيف نستطيع ان نرفع رؤوسنا حين نسمح بنشر هذه المشاهد في بلادك ؟ إنهم إخوتنا وأخواتنا ، ولقد كنا عاجزين عن صيانتهم والدفاع عنهم ! »

وحوالى ذلك الوقت وجه بعض اليهود البارزين في نيويورك — وقد روعتهم أنباء مجزرة دير ياسين — رسالةً الى الـ « نيويورك تايمس » موقعة بأمضاء الدكتور آلبرت آينشتين ، جاء فيها :

« ......ومن الامثلة المؤلمة على ذلك ما اقترفوه [اي افراد عصابة ماناحيم بيجين] في قرية دير ياسين العربية . فهذه القرية البعيدة عن الطرق الرئيسية

والتي تحيط بها الاراضي اليهودية لم تشترك في الحرب ، بل ذهبت الى أبعد من ذلك فصدت بعض العصابات العربية التي أرادت ان تتخذ منها قاعدة لها. ومع هذا فقد هاجمت العصابات الارهابية الصهيونية في ٩ نيسان هذه القرية الآمنة المسالمة ، التي لم تكن هدفاً عسكرياً في القتـال ـ وقتلوا معظم سكانها، وتركوا قليلا منهم على قيد الحيـاة لكي يستعرضوهم بوصفهم أسرى في شوارع القدس الجديدة . . »

ولقد أذهلت هذه الرسالة كثيراً من العرب . لقد عجزوا عن ان يفهموا هذه الظاهرة : كيف يلفّ الذعر نفراً من اليهود الاميركيين الى حدّ التعبير عن مشاعرهم على صفحات الجرائد ثم يسمحون لانفسهم بأن تسكنهم تهديدات الصهيونيين الاميركيين ؟ وكان من العسير عليّ ، بعض الشيء ، ان اشرح لهم الوضع ، ولكن كان ثمة اشياء كثيرة استعصت على التفسير آنذاك ، ولم يكن اقلها خطراً جُبن الصحافة الاميركية واستخذاؤها . ولقد غدا أساسياً ان أوضح لهم ان المزاحمة العنيفة بين الصحف احالتها الى مشروعات تجارية اكثر منها مؤسسات انشئت لخدمة الجمهور ، وان تلك المشروعات التجارية كانت تعتمد على الاعلانات التي ترد هـا من الشركات والمحال التجارية الكبرى . ومن هنا كانت دائرة الاعلانات في الصحيفـة الاميركية هي التي تسيطر على سياستها في كل ما يتصل باليهود والصهيونيين ، وبذلك انتهت الصحف الى ان تصبح مجرد قوّادات لاولئك المعلنين . فكان من نتائج هذا أن الخبر الصحيح غير المغرض لا يمكن نشره في الصحف الاميركية الا اذا خلا مما يؤذي المعلنين او يسيء الى مصالحهم .

●

وفي سنة ١٩٤٨ كان همّ السودانيين الاكبر الطعام والحرية . وكان رجال الادارة البريطانية – الذين اطلق عليهم السودانيون الظرفاء تهكماً، اسم «الآلهة» – قد سعوا الى ان يمكّنوا لنفوذهم الفعلي في البلاد من طريق إدخال الشيوخ السودانيين في الحكومة بوصفهم قضاة ثانويين وجباة ضرائب. واذ كان هؤلاء الشيوخ يتقاضون نسبة مئوية من الغرامات التي يفرضون والضرائب التي يجمعون فقد نشطوا في اداء المهمة الموكولة اليهم في نشاط بالغ كانت ثمرته الاخيرة في تلك الاراضي الجرداء ، انتشار المجاعـــة السرمدية . وبدلاً من الطعام كان في السودان محصول من القطن فُرض على السكان لتغذية مصانع مانشستر البريطانية . ومن هنا اخذت النقمة تجتاح السودانيين ، وشرع الجائعون منهم يفرون الى شبـــه الجزيرة العربية رجاة أن يجدوا من يشتريهم ويتخذ منهم عبيداً أرقـاء . في حين خاض المثقفون منهم غمار السياسة كوسيلة لانتزاع الحرية التي يئسوا من الحصول عليهـــا من طريق التدخل المصري والتي أدركوا الآن أن عليهم أن ينتزعوها من المحتلّ بأنفسهم .

ولم يكن في بور سودان مـا يساعدهم كثيراً . كانت سكة الحديد تنحدر من الكثبان المحيطة بالخرطوم ، وكانت ثمة بلدة صغيرة قاحلة في وسطها حديقة عامة أشد صغراً ، وبناء حكومي ضخم وثكنات ترفرف عليها الاعلام البريطانية والمصرية . وباستثناء بعض الجنود المصريين من ذوي الرتب الدنيا لم تقع عيني على احد من المصريين . أمـا الموظفون البريطانيون فكانوا كثيرين ، ولم يكن عندهم شيء يقولونه .

واخيراً امتطيت متن الـ « سيلفرستار » من جديد، فانطلقت بي في البحر الاحمر الى الحديدة ومخا اليمنيتين ومنها الى باب المندب (باب الجحيم) ، فمحمية عدن فعُمان في اتجاه الخليج الفارسي . حتى اذا بلغنا مضيق هرمز — وهرمز هو الـه الشمس ، وقد خلع اسمه على المدينة القديمة التي كانت في وقتٍ ما مفتاح الخليج الفارسي — شاهدنا قافلة طويلة من ناقلات الزيت قادمة من مختلف موانيء البترول — عبادان ، والبحرين ، والبصرة ، والكويت ، ورأس التنورة — ومتجهةً الى مختلف موانيء العالم الظمأى الى الزيت . ونادراً ما كانت تمرّ لحظة من لحظات الليل او النهار من غير ان تسطع فيها أضواء ناقلات الزيت الماضية في سبيلها . وكانت الرايات التي ترفعها تلك الناقلات تشير الى انها تنتسب الى دول شتى .

وليس في ميسورنا ، من الناحية الجيولوجية ، ان نعتبر الخليج الفارسي مياهاً صالحةً للملاحة ، لأن سفن الأثقال العميقة لا تطمئن الى سلامتها ، إلا في وسطه . من اجل ذلك تضطر سفن المحيط العالمية الى ان تبقى ضمن نطاق الحدود الضيقة نسبياً للمياه العميقة ، او الى ان تتخبط على محاذاة البر في الطين الذي يتحدر شيئاً بعد شيء الى شواطيء بلاد العرب وايران المقابلة . وهذه الضحولة هي احد الاسباب التي تجعل الحرارة في الخليج الفارسي مرتفعة الى حد لا يطاق . والواقع ان الحرارة والرطوبة تكونان هناك ، في اشهر الصيف ، قاتلتين او تكادان . فنادراً ما يهبط الميزان الى ما دون الدرجة المئة فهرنهايت ، حتى في الليل . وقد سُجلت الحرارة في

الرمل فبلغت ١٦٥ درجة في فترة الأصيل المبكرة . وحتى في كانون الأول كانت الشمس حامية ً على الرغم من أن خط العرض الذي يقع عليه الخليج يُراوح ما بين ٢٥ و٣٠ درجة الى الشمال من خط الاستواء .

وغربي مضيق هرمز وعلى طول شواطيء بلاد العرب الشمالية الشرقية يقع ما يعرف بالمشيخات المُهادِنة ، كما يُعرف الساحل نفسه بالساحل المُهادِن . وإنما تبدأ قصة ذلك منذ تلك الايام التي وجد فيها شيوخ العرب ان السفن التجارية الهندية المثقلة بالذهب ذات إغراء لا يقاوم . فكانت زوارقهم تعترض هذه الكنوز العائمة ، لينطلقَ منها العرب ملوحين بسيوفهم اللامعة ، مقنعين البحارة بأن يساعدوهم على التخفيف من اعباء السفينة العاملة على خط التجارة الهندية الشرقية . وطوال بضعة عقود من الزمان وجد شيوخ الجزيرة العربية في ذلك تزجيةً لأوقات الفراغ فيها متعة وفيها فائدة .

بيد ان بريطانية لم تجد في ذلك متعةً ما . فدعي اسطول صاحب الجلالة الى التدخل . وفي سنة ١٨١٠ انطلقت حملة عسكرية من بومباي فغزت عُمان وقذفت بنيران مدافعها عدداً من الموانيء العربية ، حتى « دُخان » في قَطَر الحالية . وبذلك أدبت بريطانية تسع مشيخات عربية ، وصار في ميسور شركة الهند الشرقية البريطانية ، سنة ١٨٢٠ ، ان تطمئن الى سلامة أغنى البواخر وابطأها فيما هي تجوز خياشيم بلاد العرب الشمالية الشرقية ، المرتعشة . ولكن البريطانيين لم يقنعوا بذلك . فما كان منهم الا

ان اقنعوا الشيوخ في نوار ١٨٥٣ بتوقيع «معاهدة سلم سرمدية»، ثم جعلوا من الخليج الفارسي منطقة محكورة لهم من طريق «الاتفاقية المانعة» Exclusive Agreement في آذار سنة ١٨٩٢ ولقد قيّدت هذه الوثيقة شيوخ الساحل المهادن – كما كان يُعرف آنذاك – بأن يرفضوا كل عرض من عروض الصداقة تتقدم به أيما دولة أخرى .

ومن ذلك الحين غدا سلطان البريطانيين على جزائر ومشيخات شبه الجزيرة العربية الواقعة في الخليج الفارسي أو على ضفافه ، كاملاً مطلقاً . وفي سنة ١٩١٤ عندما لمس الانكليز ان الديبلوماسية الألمانية تعتزم اكتساب الخليج الى جانبها وجهوا بعثة الى الكويت وسعوا ، في شيء من الاكراه ، الى إغراء شيخها الحاكم بأن يربط مستقبل مملكته الصغيرة بمستقبل بريطانية .

واليوم تغصّ هذه المشيخات المهادنة بالمناطق الغنية بالبترول والممتدة من قطر الى رأس الخليج حيث تعدُ آبار الزيت الكويتية هذ الدولة الصغيرة بازدهار دونه ازدهار ايّ من الدول العربية . وليس لقطر من الثروة النفطية مثل ما للكويت ، ولكن في « دُخان » يعبر خط للانابيب قاعَ الخليج الضحل الى مصافي البحرين ، ويتقاضى شيخ قطر عائداته من غير ان يكلف نفسه عناء تكرير النفط محلياً . وفي البحرين حلّ الزيت محلّ اللؤلؤ واصداف اللؤلؤ كمورد قومي .

والقت الـ « سيلفر ستار » مراسيها اول ما القتها في البحرين . واذ كنت أحمل سمة امبراطورية من مكتب الجوازات البريطاني

في نيويورك فقد اعتقدتُ أني لن أجد ايما صعوبة في النزول الى البرّ ، هناك . وكنتُ على خطأ ، ولكني لم اكتشف خطأي هـذا الا بعد ايام ثلاثة . ورست الـ « سيلفر ستار » وسط مجموعة من السفن ترفع الاعلام الاميركية والبريطانية والبانامية . وكان الميناء على شكل T ، ولكنها T مكسورة الجذع لأن الميناء يتصل عنـد منتصف الطريق الى الشاطيء تقريبـاً — وعلى زاوية مائلة الى الغرب — بمجاز ضيق يشكل الحلقة الأخيرة في مدى الثمانية الاميال الممتدة من شعاع رأس الميناء الأفقي الى اليابسة . وإنمـا ينتهي المجاز بالطريق الى المنامة عاصمة المشيخة والى اليمين تقوم تلـك الشبكة الضخمة المعقدة العصرية الى ابعد الحدود من أساطين المصافي وأنابيبها ذوات الزوايا . وعلى مسيرة ميل واحد الى الوراء تمتدّ الطريق عبر مقبرة ترجع الى العهـد الفينيقي لمّا يَرُدّها الباحثون بعد ، قبل ان يصل المرء الى المسجد الأموي الراقي الى القرن الثامن . والمنامة بلدة صغيرة موحلة تغصّ بالمعدمين ذوي العيون المريضة ، والثياب الممزقة ، والاجساد الجائعة

ويحسن بي ان أنصّ منذ البدء على أني هبطت ارض البحرين من غير ترخيص رسمي . فالحقّ اني كنت طوال تطوافي في البلدة خارجاً عـلى القانون ، وكان في ميسور السلطة ان تلقي القبض عليّ وتلقي بي في السجن . ولكن الحظ كان حليفي . وكانت الامطار تهطل في المنامة ، والطرق غـير معبدة . وكانت السيارات التي تذرع الشوارع ذهاباً وإياباً تغرق السابلة بمياه الشوارع ووحولها . وكانت البغال الطويلة المليحة المجلوبة من

الأحساء تقوم مقام الجمال والحمير في البحرين ، وكان سائقوها المتباهون - اللابسون عادةً سترات عسكرية بريطانية بالية وقبعات خاكيّة ممزقة - اكثر اهتماماً وأشد رفقاً بالمساكين عابري السبيل .

وعلى الجملة ، فبرغم ان فقرهم بدا اكثر تطرفاً في هذه الارض الغنية من فقر السودانيين في ديارهم الجرداء كان عرب البحرين مبتهجين غير متشكين . حتى الشحاذون كانت الابتسامة تُظلّ ايديهم المبسوطة التماساً للعطاء . وكان العمال الحاملون صفائح الزيت على متن الـ « سيلفر ستار » ينفقون فرصة الغداء راقصين على انغام المزمار الحزينة المُعْوِلة ، مكشرين واثبين لكي يُغروا الناظر اليهم بالابتسام . وانما كانوا يفعلون ذلك تسلية لانفسهم عن المتاعب او لعلهم كانوا يقصدون به الى ادخال الدفء على قلوبهم ، اذ لم تكن تعقب الرقص محاولة الى جمع النقود على الرغم من استمتاع ركاب السفينة وملاحيها جميعاً بالمشهد .

وقال ربان الـ «سيلفر ستار» إنه لن يسمح بالهبوط الى اليابسة لغير الذين كانت البحرين هي طِيّتهم ومقصدهم . حتى اذا سألناه عن السبب في ذلك اجاب انه أمرٌ صادر من مستشار الشيخ الممثل لحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، وهو رجل يدعى المستر بيلي J. C. Pelly وكان مستر بيلي هذا يضيق الخناق على الاميركيين بعد ان عاث ملاحو إحدى ناقلات الزيت الاميركية فساداً ذات يوم في المنامة واقلقوا راحة السكان بعربدتهم الصاخبة . ومن ذلك الحين قامت سياسته على هذا المبدأ : « يحظر السماح للاميركيين

بالنزول الى اليابسة . »

وحاولتُ ان اقصد الى الميناء واتصل بمقرّ مستر بيلي تلفونياً . وبعد جهد ، ردّ عليّ سكرتيره سائلًا إياي عما أبتغي . فقلت إني صحافي ، وإني احمل سمة بريطانية . فهاله ذلك في ما يخيّل اليّ ، ولكنه أخفى انفعاله وكرر القول بأن من المحظور عليّ ان اهبط اليابسة . ثم انه فكر ثانية او ثانيتين واقترح عليّ أن أتصل بمستر براون ، ممثل شركة « بابكو » في المنامة . وكذلك فعلت . وقال مستر براون انه يمثل الشركة فعلًا ، وانه يرغب في أن يساعدني على مغادرة السفينة ، ولكنه بريطاني ، وهو يكنّ الاحترام البريطاني لمن في يده مقاليد السلطة . وهكذا ابدى مستر براون « أسفه » ، واقترح عليّ أن اتصل بمستر كيرني Kearney ممثل شركة « آرامكو » . و « شركة النفط العربية الاميركية » شركة اميركية ، في حين ان « شركة نفط البحرين » يسيطر عليها البريطانيون برغم ان شركة « ستاندرد اويل أوف كاليفورنيا » و « شركة تكساس » تملكان فيها ، من الوجهة النظرية ، نصيباً مماثلًا لنصيب البريطانيين . ومن هنا رجوتُ أن يسعفني مستر كيرني . ولكن رجائي ما عتّم ان خاب . لقد تحدث اليّ الرجل في ثقة وبروح من التشجيع ، ولكنها كانت ثقة ديبلوماسية ، وتشجيعاً ديبلوماسياً . وقال لي انه سيدرس المسألة ويتصل بي . بيد أنه لم يفعل شيئاً من ذلك قط !

وكذلك سلختُ يومين اثنين أسيراً على متن السفينة ، فكنت أرى الى ناقلات الزيت ، من مختلف الهويات والجنسيات ، تشدّ الى الميناء

فتروي ظمأها الى البترول ثم تمضي لسبيلهـــا . كانت السفن الحربية الاميركية التابعة « لأسطول البحر الابيض المتوسط » تفد التماساً لاستهلاكها الذاتي من الوقود ، في حين كانت ناقلات الزيت التابعة للاسطول الاميركي تحمل أثقالاً من النفـط للبوارج الحربية المرابطة في مالطة واستانبول وأثينـا . وذات يوم وفد على الـ « سيلفر ستار » شيخ ثانوي من شيوخ الأحساء ليقـــوم بصفقة ما مع ربانها . وكان في ميسوره ان يتكلم الانكليزيةبعض الشيء ، فأحاله الربان عليّ اعتقاداً منه انالشيخ قادرٌ على «تهريبي» الى اليابسة . أو هذا ما خُيّل اليّ على الاقل ، بالرغم من انه ليس ينبغي لي ان أعزو هذه الفكرة الاجرامية الى الربان . فلعـــلّ دوافعه ان تكون على غاية من البراءة .

وعلى اية حال ، فقد كان الشيخ معنياً الى ابعد الحدود بجمهورية باناما . حتى اذا سألته عن ذلك قال إنهادولة بحريةضخمة . فذهلت لقوله ذاك ، وذهل هو بدوره لذهولي . فقد كان الامر واضحـاً بالنسبة اليه ، لأن نصف السفن المشدودة الى الميناء كانت تحمل راية باناما على سواريها ، ونجمة « كالتكس » الحمراء على مداخنها . وحاولت ان اشرح الاشياء للشيخ . فقلت له إن شركات النقـل البحري الاميركية ـ رغبة منها في اجتناب الاجور المرتفعـــة وغيرها من التبعات الثقيلة التي يفرضها القانون البحري الاميركي ـ تضطر احياناً الى ان تسجل بواخرها لدى دولةٍ صديقة تكون قوانينها أقلّ صرامةً . وأصاخ الشيخ ، وأحسب أنه قد فهمني . ولكنه لم يستطع ان يفهم لماذا يتعين على شركة ما ان تلجأ الى هذه

الاجراءات كلها . وتساءل لمَ لا توضح الشركة هـذه الامور للحكومة وعندئذ تعمد الحكومة الى تيسير القوانين ، وهكذا تتاح للشركة فرصة العمل على نحو مشروع في ظل الراية الاميركية . ولم أعقّب على هذه النقطة بشيء ، فقد كانت ثمة اشياء لا يمكن شرحها .

وكان الذي يهمني ، آنذاك ، أن القي نظرةً على تلك القبور الفينيقية والمسجد الاموي . وأسررتُ للشيخ بالمصاعب التي تكتنفني فتأثر أبلغ التأثر . وقال إنه سوف ييسّر لي سبيل النزول الى البرّ ، وكان سائق سيارته يعرف المنامة كما يعرف وجه عباءته . وقد وعدني بأن تعود بي السيارة الى السفينة عقب انتهاء الزيارة ، مؤكداً أن التدبير الذي اتخذه مستر بيلي ينطوي على بلاهة لا تقلّ عن بلاهة القوانين الاميركية التي تجعل من المتعذر على الاميركيين تسيير سفنهم بربحٍ حسن .

وكانت سيارة الشيخ من طراز « بويك » ، وكان سائقها بارعاً . وفي حذر هبطت رُكن التلفون فيما كان الشيخ يودع الربان والضابط الأول . حتى اذا تهادى الشيخ العربي النحيل بكوفيته البيضاء ، وعقاله الصوفي الاسود ، هابطاً في ابهة وجلال المجاز الموصل ما بين السفينة والبر ، لحقتُ به . وكانت سيارة « بويك » مفزعاً مترفاً ، فجلست في المقعد الخلفي مع الشيخ وانطلق بنا السائق نحو البلدة .

واجتزنا المقبرة والمسجد في طريقنا الى العاصمة . وعلى الرغم من اني ، لحسن الطالع ، لم احتجّ او اتذمر فقد اخذني شيء من القلق .

لم يساورني الخوف من ان أختطف ، ولكني تساءلت هل قد فهم الشيخ ما أبتغي فهماً صحيحاً وأدرك ان رغبتي قاصرة على زيارة المنامة دون المضيّ عبر المجاز الخاص بالسيارات الى الاحساء على ساحل شبه الجزيرة العربية .

ولكن الشيخ كان ارقّ حاشيةً مما كنتُ احسب . فقد وقفت السيارة بنا – أولَ ما وقفت – عند احدى الدكاكين ، وترجل السائق منها مزوّداً بالمال والتعليمات ، وما هي إلا دقائق حتى عاد حاملاً كوفية اخرى شبيهة بتلك التي تغطي رأس الشيخ ، وعقالاً . وقال الشيخ إن غطاء الرأس هذا خليق به ان يكون تمويهاً واقياً ، فاذا ما رآني رجلٌ من شرطة بيلي أطوّف في المسجد او في المقبرة الفينيقية خالني عالماً عربياً وتركني وشأني . ونجح التدبير أحسن نجاح . وقضيت في المنامة يومين كاملين (بعد ان أقبلت سيارة الشيخ لتقلني في اليوم التالي) وغمرتني السعادة ، لا لأني وفقت آخر الأمر الى زيارة المقبرة الفينيقية والمسجد الاموي فحسب ، بل لاني فقتُ مستر بيلي في فنّ المناورة والكرّ والفرّ !

والكويت تصغير كوت ، او قلعة ، ولقد صانت « القلعة الصغيرة » مؤخر الخليج الفارسي هذا طوال قرون ، وجائز ان تكون قد صانته طوال آلاف من السنين . والواقع ان الاقتراب الى المدينة المسوّرة من المرفأ الفخم الرائع ينقل المُشاهد القهقرى الى عهد سرجون الاول والحضارة العربية الزاهرة في « أكّد » . ولا شك في ان « أور » الكلدانية قد تاجرت مع الكويت ، وان السفن الآتية من البصرة كانت تشق طريقها في عُسر عند مدخل

جدار البحر القديم الضيق كما فعلت سفينتنا اليوم ، محتكة بجوانبه الخشنة فيما كانت تغادر لجج المرفأ المتلاطم الأمواج التماساً للأمن والسلامة خلف الجدار البحري . وهناك كانت بقايا اسطول اللؤلؤ والمراكب التجارية التي كانت تقوم برحلات يومية الى العراق ، على بعدة اربعين ميلاً بحرياً . ذلك بأن الكويت كانت ، كالبحرين ، مشيخة ينهض اقتصادها على اللؤلؤ ، وهي اليوم ، كالبحرين ايضاً ، أرضٌ قوام حياتها الاقتصادية البترول .

وكان من حسن طالعي ان ارى الكويت وهي لا تزال جزءاً من شبه الجزيرة العربية . ففي مستهل الحرب العالمية الثانية تعطل تطور التسهيلات النفطية في الكويت ، ولم يُستأنف إلا سنة ١٩٤٧ . وبعد عام واحد كانت معدات شركة نفط الكويت تعمل في «البرقان» وجبل «وارة» و «الاحمدي» . وكانت شركة بكتل الدولية Inter. Bechtel Inc. تنشيء مرفأ وحوض سفنٍ في الخليج الذي يقع قرب الاحمدي . وجندت مؤسسة إ. ب. بادجر E. B. Badger البوسطنية جيشاً بكامله من الرسامين وواضعي التصاميم للعمل في البلاد . وشرعت مؤسسة وبمي اللندنية في تشييد بناء مكتبي جديد متعدد الادوار في سوق المدينة . ومع ذلك فقد كانت الكويت لا تزال في شبه جزيرة العرب . ففي مدينة الكويت كان المرء يرتدّ ، في مثل نكسة المرض ، الى القرون الوسطى . كانت ثمة تلك الشوارع المتعرجة الضيقة التي تحيط بها البيوت العربية ذات الدور الواحد بحدائقها المسوّرة ، وجوانبها المطلية بالكلس ، ونوافذها الضيقة

المقنطرة . وهناك تقوم الدكاكين التي تبيع النفائس من اوروبية وشرقية وسجاجيد الصلاة الفاخرة والطُرَف النحاسية العربية .

وانما بنيت الكويت في محاذاة الجزء الداخلي من اسوارها الترابية اللون ذات الفوّهات التي تُطلق منها النار . ههنا كانت المنازل والدكاكين . وفي الوسط ، عبر القصر والبـــاب الرئيسي المفضي الى الصحراء ، كانت رقعة الارض الواسعة التي ينهض فيها خان (فندق) القوافل والميدان . وهنـــا كان ويبي وشركاؤه يشيدون صرحَ « مصرف ايران » . وههنا كانت خطوط التلفون تمتد من قطب مؤصّلٍ راسخ الى زاوية من زوايا البناية فتبدو في غير موضعهـــا وكأنها في فيلم « كو فاديس »* Quo Vadis وكانت الابواب تغلق عندمـــا يهبط الليل خشية ان يتسلل الى المكان بعض الغزاة من نجد او من الاحساء ، ولكن وراء تلك الابواب مطاراً تستخدمه الطائرات الاميركية العاملة في الخليج الفارسي . ومن خلال كل شيء ، تستروح عبق الجزيرة العربية : القهوة والتبغ القوي ذي النكهة الطيبـــة ، ورائحة لحم الضأن المطبوخ الشهية ، والزعفران ، والارز ، وعبير حبّ الهال وماء الورد وأحياناً رائحة الموت الكريهة المطوّفة في الأجواء . ووراء الأسوار ، بين البلدة والمطار ، كانت تلقى القاذورات ، وتُطرح جيف الحمير والكلاب والجمال لتصبح طعاماً للطير .

---

* رواية وضعها سانكيوايز Sienkiewiez (١٨٩٥) وتجري حوادثها في عهد نيرون مصورة ما لقيه المسيحيون الاولون من عظيم الاضطهاد والتعذيب. وقد اخرجت على الشاشة السينمائية . [المعرب]

وُقرع ناقوس يُنذر بتغيّر يوشك أن يقع، ناقوسٌ ذو طابع شخصيّ اكثر من خطوط التلفون بمـــا لا يُقاس . وإنما كانت الـ « سيلفر ستار » هي حاملة هذا النذير : شحنة من ثلاثين سيارة طراز كروزلي . ولقد خُيّل اليّ حين بصرتُ بها ، عبرَ الميدان من بناية ويمبي الهيكلية ، ان ثمة اجتماعاً سياسياً . كان المكان يغصّ بالعرب المهتاجين المتبسّمين الذين يومئون بأصابعهم ههنا وههناك، ويفحصون الموتورات في كثير من العناية بعد أن رُفعت أغطيتها. وفجأةً قلت لنفسي: من هنا ستبدأ نهاية العربي وجواده، وتزول صورة رومانتيكية أخرى الى الأبد. فها هم ابناء الصحراء في زيهم البدوي الكامل، من الكوفيات السمراء والعقالات السوداء ، الى العباءات الخشنة السمراء والصنادل المزركشة بالالوان الزاهية . وها هي عدةٌ من سيارات كروزلي الصغيرة غير العملية في طرق شبه الجزيرة العربية الرملية بسببٍ من عجلاتها الصغيرة ، تسترقّ أهل الكويت وتستعبدهم . ولقد أخبرني مستورد البضاعة – وهو عربيّ سوري – أنه تلقى طلباتٍ تستنفد الشحنة كلها ، وأن في ميسوره أن يبيع أيّ مقدار من السيارات تبعث اليه الشركة به . وأحسبُ أنه على صواب . فلم يبقَ ثمـــة كبير شك في أن يوم الفَرَس في شبه الجزيرة العربية قد انتهى . فالملك عبـــد العزيز ابن سعود لم يمتطِ صهوة جوادٍ ما منذ عشرات السنين ، ولكن عنده اسطولاً ممتازاً من سيارات « كاديلاك » المذهّبة الحواشي ، البالغة الطول ، والمجهزة بواقد خاصة لأعـــداد القهوة وثلاجات تزوّد الراكبين بشراب ماء الورد المثلج فيما تنطلق السيارة بهم في

عرض الصحراء .

ولقد حدّثني ابن عم شيخ الكويت ، وهو أسود البشرة يحسن الكلام بعدة لغات وقد تلقى علومه في جامعة بيروت الاميركية ، عن أثر السيارة في تثوير * الحياة الاجتماعية في شبه الجزيرة فقال :

« ألا ترى اني حين انطلق اليوم للصيد لا اصطنع بازياً ولكن بندقية ؟ اني اصطحب اربع شاحنات واربع سيارات ليس غير ، فأصل ورفاقي الى مواطن القنص في يومين اثنين . اما في الايام الخالية فكنا نصطحب مئة بعير او مئتين ، الى جانب اربعين فرساً في بعض الاحيان ، ثم لا نصل الى مواطن القنص حيث نصيد الطيور والغزلان الا بعد ثلاثة اسابيع . وكذلك نأخذ معنا في هذه الايام ، احياناً ، الشاحنة الضخمة التي تُقلّ المولد الكهربائي لكي ننير الخيام ، وندير وحدة التبريد السريع حيث نضع اللحم . »

اجل ليس ثمة ريب في ان السيارة قد غزت شبه جزيرة العرب ، ولكن ما الذي سيحلّ بالجواد ؟ لقد قيل ان الجواد عضو في البيت العربي اكثر منه وسيلةً من وسائل المواصلات ، وها هي ذي كلمات هذا الشيخ الداكن الى حد بعيد ، المنتمي الى الاسرة الحاكمة في الكويت ، تبدو وكأنها تستأصل استئصالاً كاملاً معالم الجواد النبيل باستثناء كونه موضوعاً للتباهي النسبيّ ، طبعاً .

وأحبّ ان انصّ ههنا بين معترضتين ، على أن العربي لا يعجب لأن يرى زنجياً على رأس الاسرة . فوراثة الزعامة القبلية

* Revolutionizing .

ووراثة المشيخة حق من حقوق الولد البكر بصرف النظـــر عن أمه . فاذا ما وُلد ابن الأمة قبل ابن الحـرة او الزوجة البيضاء فعندئذ يرث الزنجيّ الزعامة دون اخيه .

والواقع أن وليّ العهد ، في هذه الحالة ، وهو الولد البكر لعمّ الشيخ الحاليّ ، قد لا يرقى العرش بسببٍ من بعض التعقيدات الوراثية التي سيتذرع بها سائر اعضاء الاسرة الحاكمة . ولكنّ مردّ ذلك لن يكون بأية حال الى لونـه الداكن . وحتى الملك عبد الله تزوج ، في ما يقال ، أمـــة سوداء من اصل سوداني أو صوماليّ . ذلك بأن المسلمين جميعاً سواسية في عين الله بصرف النظـر عن لون بشرتهم . ولعل المسلمـــين هم اكثر شعوب الارض تسامحاً نحو أهل الاديان الكتابية الثلاثة على الاقـــل : الاسلام والنصرانية واليهودية . أما الآن فقد تغيّر الموقف بالنسبة الى الدين الثالث بعد أن غدت الصهيونية خطراً يتهدد الشرق الاوسط .

وطوال تاريخ الكويت القـــديم ظلت مشكلة ميـاه الشفة من غير حلّ . وحتى وقت قريب عندما أمر الشيخ بتشييد مصفاة لتحويل مياه البحر الى مياه صالحة للشرب كان اهـــل الكويت يستوردون ماء الشفة من العراق . والى ان بدأت الـ « كوك » K.O.C (شركة نفط الكويت) تبعث بزيتهـا الى البصرة كانت المياه تحمل من شطّ العرب وتباع لأهل الكويت في ظروف من جلد الماعز ندية لامعة ، وكان السقاة ، السُّمر المتجعـدو الوجوه الحفاة يطوّفون بالماء في الشوارع المغـــبرّة ، مطنطنين للظامئين باكوابهم المعدنيـــة المتراكب بعضهـا فوق بعض طنطنـةً موسيقية ، صابّين مياههم السكّرية الملوّنة في لباقة واقتصاد من

الظروف الجلدية ذوات الصمام .

وفي سنة ١٩٤٧ ، عندما تدفق البترول من جديد على وجه الصحراء لم تكن اسباب الخزن الملائمة متوفرة فعقد اتفاق مع شركة نفط البصرة يقضي بأن تخزن هي نفط الكويت الى ان تنشأ الصهاريج الخاصة به . وفي الوقت نفسه ادّى تدفق الموظفين البريطانيين والاميركيين الاخصائيين في النفط ، على البلاد ، الى جانب مستخدمي شركة بكتل الدولية (I.B.I) ومؤسسة بادجر وغيرهم من عابري السبيل الاوروبيين والاميركيين الى نشوء أزمة في هذا السائل الحيوي — أزمة زادها حدةً فقدان الجعة والمشروبات الروحية وما اليها . واخيراً اقترح بعضهم أن يُفرد في كلٍّ من ناقلات النفط القاصدة الى البصرة حوضٌ خاصٌ بالماء وضروب الشراب . وهكذا حُلّت الازمة في الحال ، عندما القت سفينتان اميركيتان مراسيهما في مياه الكويت وأفرغتا من جوفيهما آلافاً من صناديق الجعة . وما هي الا ايام حتى استشعر الغربيون من نزلاء الكويت أنهم بلغوا نقطة الارتواء أو التشبّع .

وثمة قليلٌ من الماء ، طبعاً ، على مبعدة ثلاثين ميلاً من البلدة أو نحوها ، ولكنه أُجاج مالح ليس يصلح للشرب . وهو يمتاز لتزييت آلات الحفر . والانابيب تنقله عبر الصحراء ، كما تنقل جميع السوائل (عدا مياه الشفة) من مكان الى مكان في شبه الجزيرة العربية . فيصل الى تلال « البرقان » حاراً ، ذا رائحة ، ينبعث منه البخار في ساعات النهار ، وبارداً ذا رائحة في ساعات الليل .

وفي كانون الاول من عام ١٩٤٨ كانت الكويت باردة جداً

آناء الليل وعند الصباح الباكر . أما في خلال النهار فكانت الحرارة ترتفع الى درجـــة تضطر المرء الى تكييف الهواء . وفي شهر آب تبلغ الحرارة في الكويت مبلغاً مخيفاً . ولقـــد سُجلت مرةً في الرمل فبلغت ١٦٥ درجة فهرنهايت . ومن حسن الطـــالع ان حرارة الهواء دون ذلك وإلا لغلى عمال النفط في ملابسهم كما تغلي القدر على النار . ومع ذلك فالحرارة مرتفعة الى حـــدٍّ لا يكاد يطاق ، حدٍّ يجعل الانكليز التابعين لشركة نفط الكويت يضيقون ذرعاً باكواخهم المبنية من صفائح الحديد المتغضن كلما فكروا في المستخدمين التابعين لشركة بكتل الدولية (I.B.I) في بيوتهم ونواديهم المترفة المكيّفة الهواء .

وتعتز الـ « آي . بي . آي » بأنها تحيط موظفيها بكل ما ينسيهم أنهم غرباء عن الوطن . لقد شيدت ناديا رحباً ينتظم صالةً لعرض الافلام السينمائية ، ومطعماً يقدّم الى زبائنه شرائـــح لحم البقر المعروفة بشرائح همبورغ والنقانق الحارة والكوكاكولا والقهوة الاميركية ، ومختلف الاغاني والمقطوعات الموسيقية المسجـــلة وضروب ألعاب التسلية والمقامرة . وفي المطعـم ، كانت الألوان كلها هي ألوان « الغرب الاوسط » . * Middle West ، وفيهـا شرائح لحم البقر ، والبطاطا المقلية ، واللوبياء الخضراء ، واللوبياء الفرنسية ، والخبز المُحَمّ في الوطن ، والزبدة الطازجة ، والمخللات

* اقليم في الولايات المتحدة يحده من الشرق جبال « آليجيني » ومن الغرب جبال «روكيز » ، ومن الجنوب نهر اوهيو والاطراف الجنوبيـــة من ولايتي ميسوري وكنساس . [المعرب]

على اختلاف ضروبها ، والشاي المثلج ، والقهوة المثلجة ، وصنوف الفطائر الطازجة . لقد كنتُ ضيفاً هناك ، ولقد بدت شبه الجزيرة بعيدةً عن ناظريّ ، بعيدةً جداً .

وكان جيم والترز ، وهو اميركي ، يتولى إدارة شركة نفط الكويت بالوكالة . ومنه عرفتُ ان الشركة تملكهـــا مناصفةً مؤسستان اثنتان هما شركة النفط الانكلو ايرانية وشركة نفط الخليج الاميركية . ولعلّ ثروة آبار النفط الكويتي ضِعْفُ ثروة آبار النفط الايراني ، على الرغم من صغر مساحة المشيخة نسبياً . ولولا مصافي عبادان الكبرى ـ وهي اضخم مصافي البترول في العالم كله ـ لكانت شركة النفط الانكلو ايرانية خليقـــةً بأن تستغني عن حقول الزيت الفارسية التي تكتنفها المتاعب وتكتفي بحقول الكويت .

ولقد حكم الشيخ أحمد آل جابر الصباح ، الحاكم الحالي ، الكويت منذ عام ١٩٢١ عندما ورث العرش عن الشيخ التاسع من شيوخ الاسرة الصباحية التي رقيت العرش حوالى منتصف القرن الثامن عشر .

والكويت كالبحرين ، موضوع نزاع بين العراق وايران على اعتبار ان كلاً من الدولتين قُدِّر لها ان تبسط سلطانها ، في فترة من فترات التاريخ ، على جزائر الخليج وسواحله . وكذلك تدعي تركيا حقوقاً هناك ، للسبب نفسه ، على الرغم من ان مثل هذه الدعوى تبدو واهنة تافهة بعد ان انحسر الحكم التركي عـــن شبه الجزيرة العربية .

وانما يبني العراق دعواه على اساس من ان تلك الجزر خضعت

لسيطرة بابل قروناً عديدة من الزمان . أما ايران فتبني دعواها على اساسٍ من انّ الجزر كانت تابعة لها في عهد الامبراطورية الساسانية . صحيحٌ ان أياً من الدولتين لن تنازع الاخرى نزاعاً مسلحاً على هذه المنطقة ؛ ولكن من الراهن ان بغداد وطهران غدتا اليوم اكثر اهتماماً بها ، وبخاصة بعد أن حلّ الزيت محلّ اللؤلؤ بوصفه مصدراً أول للثروة في تلك الديار . وبحسبك ان تعلم أن شيخ الكويت حصل منذ قريب على ٧،٠٠٠،٠٠٠ دولار مقابل توقيعه على الامتياز الممنوح لـ « شركة نفط الكويت » .

وبرغم ذلك كله كانت الكويت لا تزال في القرون الوسطى أواخر عام ١٩٤٨ . كان التجار يتركون ابواب حوانيتهم مشرعة (ولم تكن لكثير من الدكاكين أقفال على الاطلاق) عندما يغادرونها الى البيت ، في فترة الأصيل ، ابتغاء الاستمتاع بالقيلولة . لم يكن ثمة بارات أو حانات أو كاباريهات . وفي السوق كان التجار يتركون اكداساً صغيرة من الليرات الذهبية الانكليزية والليرات المنقوش عليها صورة ماريا تيريزا ثمناً للخضر التي تُحمل اليهم في الصباح الباكر من المناطق الاكثر خصباً القائمة على طول الساحل او عبر الخليج ، حتى اذا أقبل بائعو الخضر اخذوا نصيبهم العادل منها وتركوا الباقي على مقاعد التجار او مناضدهم .

لقد تغيّر كل ذلك ، اليوم . فسيارات الجيب المطقطقة تتمايل في الشوارع الضيقة مشتتةً قوافل الحمير والجمال . والحانات والبارات تُنشأ وتنطلق منها الموسيقى المدوية . وتغيرت الدكاكين أيضاً ، فظهرت على ابوابها أقفال من نوع « ييل » بعد الزيارات الاولى

التي قام بها العمال في آبار النفط الى المدينة ، وهُجرت عادة ترك الذهب على مناضد الدكاكين هجراناً مفاجئاً . لقد غزت الحضارة الكويت ، ولن ينقضي طويل وقت حتى تحتل زوايا الشوارع فيها الكاباريهات وصالات رقص البطن . . .

وكانت السماء قد اخذت تمطر عندما غادرت الـ « سيلفر ستار » مرفأ الكويت في الليلة الاخيرة من العام ، على نغمات الانخاب والكؤوس المترعة بالخمر السويدية . فما ان أفقت من سباتي صباح اليوم الاول من كانون الثاني ١٩٤٩ حتى وجدت نفسي لا في عام جديد فحسب ، بل في حقبة من التاريخ جديدة . ذلك بأن العراق ، على الرغم من أنه يغصّ او يكاد بالآثار القديمة ، هو دولة عصرية .